

قصر مصطفى باشا

بحي رياس البحر

بورابة لطيفة

أستاذة مكلفة بالدروس

معهد الآثار- جامعة الجزائر

ملخص :

من أهم المنشآت الكبرى للعثمانيين في الجزائر طيلة حكمهم لها 1518م-1830م، هو بناء الحصون والأبراج لإشتداد الهجوم الأوروبي المسيحي (إسبانيا وفرنسا وهولندا)، ولهذا نجد المدينة محصنة بحصون عديدة من أهمها حصن الثالث والعشرين (23)، الذي يعرف أيضا بطبانة سيدي رمضان أو بطارية سيدي رمضان. فقصر مصطفى باشا من بين مجموع البنايات التي تكون قصور رياس البحر (حصن 23) لمدينة الجزائر، والذي يعود بناؤه على الأرجح إلى منتصف القرن السادس عشر. ونظرا لأهمية هذا القصر من الناحية التاريخية والأثرية وحتى من الناحية الجمالية، قررت السلطات الفرنسية بمجرد وصولهم إلى المدينة أن تجعله مقر لقائد الهندسية المعمارية ولبعض الضباط ثم مقر إقامة القنصل الأمريكي.

Résumé

Lorsqu'on entre à Alger par mer, notre regard se porte directement sur la casbah, sa cascade de maison enchevêtrée les uns aux autres avec ses multiples palais et résidences, tout de blanc vêtu, on ne voit ce décor nul part ailleurs.

A son pied se trouve le palais Mustapha pacha, qui fût édifié au 16eme siècle par le rais Arnaout-mami, est devenu au 18eme siècle l'une des résidences du rais Mustapha pacha au 19eme résidence du commandant génie civil, puis consulat Américain.

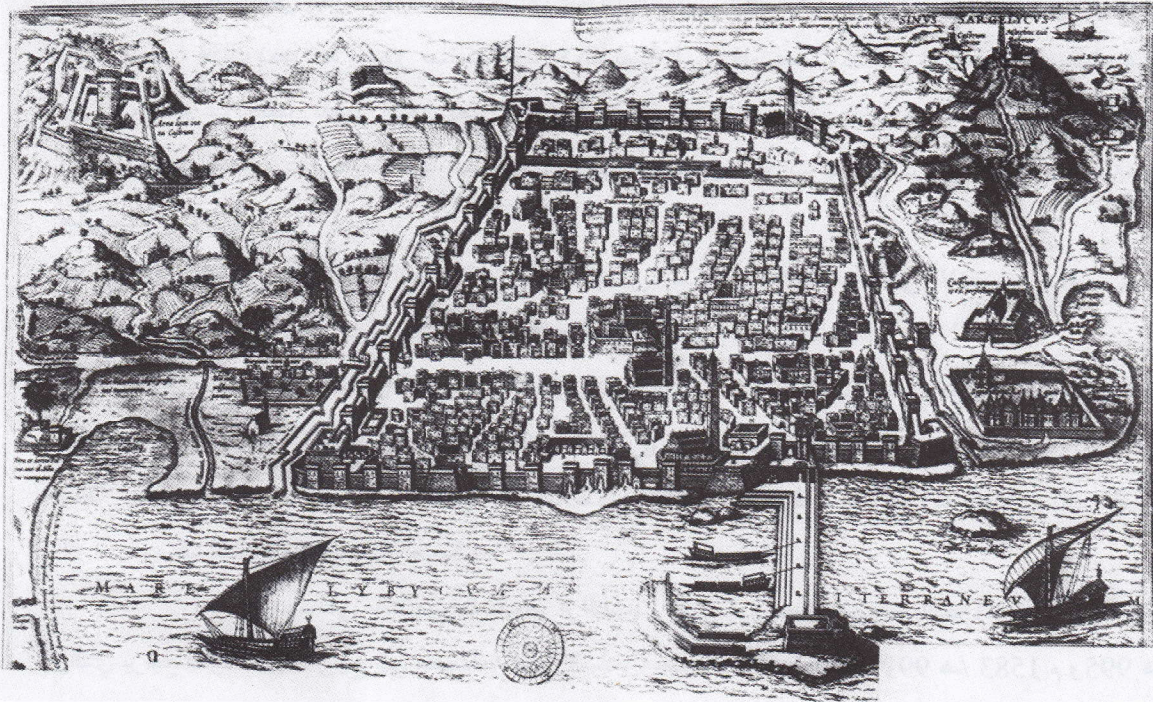
Le palais fait 840m² avec une hauteur de 16m entouré d'une muraille de pierre avec une très belle esplanade.

Le palais fait partie d'un ensemble qu'on appelle le quartier des Rais avec ses maisons, ses boutiques, ou chaque profession à son emplacement bien précis.

Là on se rend compte de la grandeur des architectes qui ont conçu ce belle édifice et tout ceux qui ont le plaisir de le visiter, sont unanimes c'est une rare beauté

من يتأمل مخطط مدينة الجزائر لا تفوته ملاحظة شكلها المثلث الذي بنيت عليه ، والذي وجهت قاعدته بمحاذاة البحر، كما لا تفوته ملاحظة تخطيطها المتميز، حيث خطت على نمط المدن الإسلامية مثل تونس والقاهرة ودمشق وحلب ، القائم على المحورين العمودي والأفقي الذي تحدت منه أربعة أبواب رئيسية. وهذا التخطيط المتميز والدقيق سمح بالتحكم الجيد في حركة التنقل الجيد للسكان ، وغيرهم من الأجانب ، والسيطرة على كل جزء منها ، فنجد المرافق الأساسية للمدينة الحضرية تتمحور حول نواة ثابتة وهي المركز التي تحيط بها كل من المسجد والجامع ودار الإمارة والأسواق ⁽¹⁾ (الشكل 1).

شكل 1: مدينة الجزائر خلال القرن السادس عشر ع/غ. إسكير



ونظرا لشكلها المتميز أعجب بها كل من زارها، ومنهم الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي الذي زارها في بداية القرن السادس عشر: « ... هي كبيرة جدا تضم نحو أربعة آلاف كانون، وأسوارها رائعة متينة، مبنية بالحجارة الضخمة، فيها دور جميلة وأسواق منسقة، رتبت فيها أجزاء خاصة بكل حرفة طبقا لكل اختصاص، وفيها كذلك عدد كثير من الفنادق والحمامات، ومن جملة ما يشاهد المرء جامعها الممتاز الذي يبدو في غاية الكبر على شاطئ البحر ⁽²⁾، والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه ... » ⁽³⁾

شهدت مدينة الجزائر خلال فترات الحكم العثماني ازدهارا اقتصاديا واستقرارا سياسيا كان لهما دورهما الفعال في تطوير حركة العمران خاصة في مجال تشييد القصور، فقد تم في هذه الفترة تشييد عدد كبير منها، اتسمت بالفخامة

¹ - Raymond (A) ; « Le centre d'Alger en 1830 ». In revue de l'occident et de la mediterrannée n° 31, 1981, p : 73.

وأيا :

- عقاب (محمد الطيب)؛ لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، (د، ت)، ص : 10
² - لعله يقصد الجامع الكبير الذي بناه المرابطون في بداية القرن الحادي عشر الميلادي ، لأن الجامع الجديد لم يكن موجودا حين زيارته الجزائر في الربع الأول من القرن السادس عشر.

³ - الوزان (الحسن ، بليون الإفريقي) ؛ وصف إفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ببيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1983 ، ط 2 ، ج 2 ، ص 39

وروعة الزخرفة⁽¹⁾، كما مكن أيضا ذلك ازدهار الجزائر من إعادة بناء المدينة بعد الخسائر التي أحدثها الزلزال العنيف خلال سنتي 1129 هـ / 1716 م⁽²⁾ و 1155 هـ / 1755 م نظرا لطول مدة هزاته الارتدادية⁽³⁾.

ومن أهم المنشآت الكبرى للعثمانيين في الجزائر طيلة حكمهم لها 1518-1830 م، بناء الحصون والأبراج لاشتداد العدوان الأوروبي المسيحي (اسبانيا وفرنسا وإنكلترا وهولندا) ولهذا نجد المدينة محصنة بحصون عديدة، فضلا عن الأسوار والخنادق⁽⁴⁾، ومن أهم الحصون حصن الثالث والعشرين⁽⁵⁾، والذي يعرف أيضا بطبانة سيدي رمضان أو بطارية سيدي رمضان⁽⁶⁾. حسب ما تشير إليه المراجع الذي تشير المراجع إلى أن بناءه كان سنة 984 هـ / 1576 م⁽⁷⁾ (مخطط رقم 1).

ويمكن اعتبار حصن 23 مكانا مرت عليه عدة حضارات سابقة للعثمانيين بدءا من العهد الفينيقي إلى العهد المسيحي دون أن ننسى الفترة الفرنسية، وهو ما سهل للعثمانيين الإقامة فيه، واتخاذهم مقرا لهم حتى أصبح يعرف بحي رياس البحر، فلذلك نجد عدة قصور صنفتها الإدارة الفرنسية إلى أرقام خست ثلاثة أرقام لمصطفى باشا وهي (17، 18، 23). وموضوعنا يختص بقصر الثامن عشر (18).

وبنيت بجانب الحصن عدة بنايات منها المساكن التي هي عبارة عن دويرات مزودة بكل مرافقها الاجتماعية، والتي عددها حاليا ست دويرات.

وقد بنيت الوحدات المكونة لهذا الحصن في شكل متناسق، متكامل، فكانت غاية في الإتقان، والدقة من حيث التقاسيم المعمارية، من البروزات البنائية وانكسارها المتدرج المدعومة بحوامل من خشب العرعار⁽⁸⁾.

وفي هذا الصدد يصف كلاين هذا المكان الذي يحمل « تاريخ الرابع عشر جوان » (14) أو شارع لوتافاج Lothophage: « بأنه زقاق رائع، يجهله السكان الجزائريون، ويستحوذ على قصور يعود تاريخها إلى الفترة العثمانية، وتمتاز بثرء زخرفي لا نظير له. تطغى عليه البلاطات الخزفية والزخرفة الخشبية، وقد اتخذ في تلك الفترة (أي الفترة الفرنسية) سكنا للقائد العام للهندسة المدنية »⁽⁹⁾.

فقصر مصطفى باشا من بين مجموع البنايات التي تكون قصور رياس البحر (حصن 23) لمدينة الجزائر، والذي يرجع بناؤه على الأرجح إلى منتصف القرن السادس عشر أي ما بين سنتين 991 هـ / 1583 م و 995 هـ / 1586 م،

¹ - لعرج (عبد العزيز)؛ الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، دراسة أثرية فنية، الجزائر، م، و، ك، 1990، ط1، ص 17

² - Guiauchain (G) ; Alger, L'imprimerie Algérienne, 1905, p: 87

³ - الشريف الزهار (أحمد)؛ مذكرات نقيب الأشراف، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، ش، و، ن، ت، 1980، ط2، ص 18

⁴ - حليمي (عبد القادر)؛ مدينة الجزائر، نشأتها وتطورها قبل 1830، الجزائر، المطبعة العربية، 1972، ط1، ص 241

⁵ - أطلقوا عليه الرقم (23) لأنه واحدا من الحصون التي كانت موجودة في تلك الفترة، والتي يغلب على الظن أن عددها أكثر من ثلاثة وعشرين، ويطلق عليه قسم « قبة الحوت »، وقصر رياس البحر، كما ورد في المرسوم التنفيذي رقم 93 - 282، المؤرخ في 9 جمادى الثانية عام 1414 هـ الموافق لـ 23 نوفمبر 1993، يراجع: باغلي، مرجع سابق، ص 100.

⁶ - Philibert (M) ; Alger, estampe du XVI^e siècle. Etude critique, Comité du Vieil Alger, 1969, p: 14. (نشرة 14).

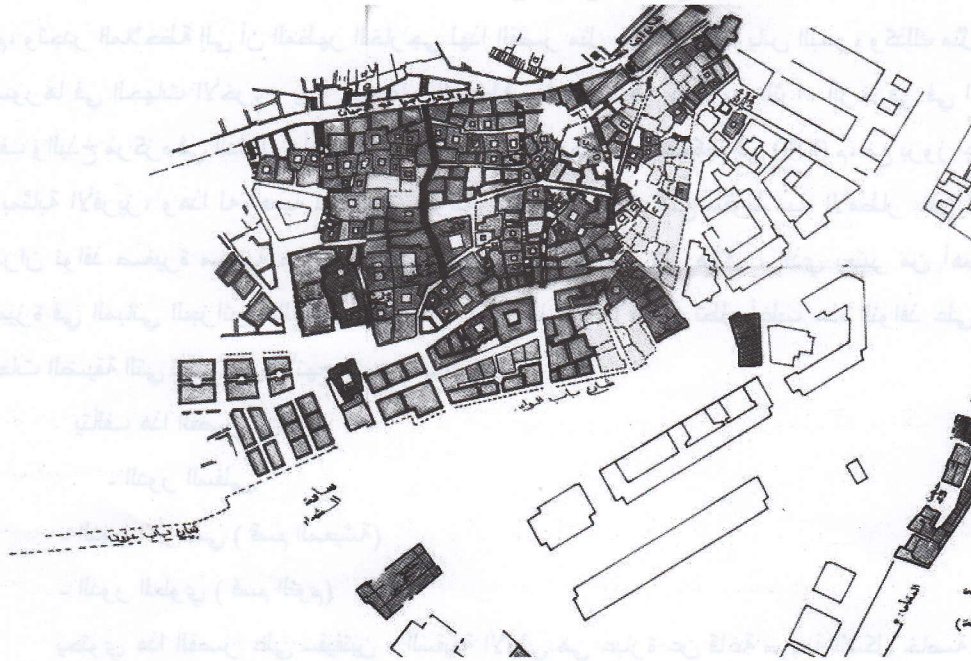
⁷ - Haedo (F.D) ; Histoire des rois d'Alger, traduite et annotées par H.D, Grammont, Alger, Adolphe Jourdan, 1881, p: 23

⁸ - كان خشب العرعار يجلب من شرشال (100 كلم عن مدينة الجزائر)، والغابات الواقعة شمال شرق زكار بمليانة، ومن خصائص هذا النوع عدم قابليته للتسوس لكونه صلب وقوي التكوين وخال من الألياف: يراجع:

Lespes (R) ; Alger, étude de géographie et histoire urbaine (collection du centenaire de l'Algérie géographique), Paris, Félix Alcan, S.D, p: 17

⁹ - Klein (H) ; « Visites et excursions des années 1910 et 1911 ». In feuilles d'Eljezair, 1912, T IV, p: 71 (المجموعة الأصلية)

بالتقريب من طرف الرئيس أرناووط مامي⁽¹⁾، لينتقل بعد ذلك في القرن الثامن عشر إلى ملكية الداي مصطفى باشا⁽²⁾، الذي أتم بناؤه، واتخذ مقر له⁽³⁾.



مخطط رقم 1 : موقع حصن 23 بمدينة الجزائر ع/د.ت.ع.ف.ج

ونظرا لأهمية هذا القصر من الناحية التاريخية والأثرية، وحتى من الناحية الجمالية، قررت السلطات الفرنسية بمجرد وصولهم إلى المدينة أن تجعله مقر لقائد الهندسة المعمارية، ولبعض الضباط، ثم مقر إقامة القنصل الأمريكي⁽⁴⁾ مخطط 01.

¹ - أرناووط مامي: ألباني الأصل، كانت له سمعة عالية في مدينة الجزائر من سنة 1583/هـ 1591م، إلى سنة 1586/هـ 1595م، ثم أصبح باشا على تونس ثم على ليبيا يراجع كل من :

-Haed ,Histoire dup:196.

Bekhamissi (M); Histoire de la marine Algérienne (1516-1830), ENAL, Alger, 2^{eme} ed, p :101

² - مصطفى باشا، هو «مصطفى بن إبراهيم» الذي تولى الحكم أيام السلطان العثماني سليم الثالث (1212/هـ 1797م، ويعتبر مصطفى باشا من أشهر دايات الجزائر، حيث كان رجلا صالحا، وكان مولع بالبناء، ومن الأعمال التي قام بها طيلة حكمه للجزائر، تشييده لعدة دور و قصور وأبراج، منها القصر الذي بناه مابين سنتين 1213/هـ 1798م و 1215/هـ 1800م، الذي تحول إلى مكتبة وطنية سنة 1280/هـ 1863م، بعد الاحتلال الفرنسي، وكذلك قصر الصوف بالقصبة، ومن إنجازاته أيضا في مجال العمارة العسكرية بناء الأبراج، كبرج باب الواد الذي كان من قبل البناء مزبلة البلد، وابتدئ أيضا في بناء رأس تافورة قرب البريد المركزي (يراجع : - الشريف الزهار، مصدر سابق، ص 80. - نور الدين (عبد القادر)، مرجع سابق، ص 117

³ - Klein (H) ; « Visites », Op, cit, p :71

⁴ - Klein (H) ; « Le vieil Alger et sa banlieue, notes Complémentaires. » In feuillets (المجموعة الأصلية) d'Eldjezair, 1912, T III, p : 37

وصف قصر مصطفى باشا :

بفضل التخطيط الذي تركه لنا « تريمو » ، تسنى لنا معرفة الشكل الأصلي للقصر قبل ترميمه ⁽¹⁾ ، (مخطط 2) ⁽²⁾ . والتصميم العام لقصر مصطفى باشا فهو يمتاز بطابع الترتيب ، إذ تبلغ مساحة القصر 840 م² ، ويبلغ أقصى ارتفاع له 16م ، وتجدر الملاحظة إلى أن المظهر الخارجي لهذا القصر مثل بقية قصور ریاس البحر ، وكذلك مثل بقية مساكن المدينة وقصورها في الجهات الأخرى ، يبدو في غاية البساطة مقارنة ما هو عليه من الثراء الزخرفي في الداخل ، وإن أصناف الترف والبذخ مركزه في الداخل . أما جدران القصر فهي سميكة يصل سمكها إلى 0.80 م ، مع بروز عنصر معماري الذي هو بمثابة الأفریز ، وهذا له أهمية في تمييز طوابق القصر ، وكذلك لمنع سقوط مياه الأمطار على الجدران ، تتخلل هذه الجدران نوافذ صغيرة مسيجة من الخارج بقضبان حديدية عليها رمز هلال ، الذي يعتبر من أهم الزخارف الرمزية المتميزة في المباني الجزائرية العائدة لهذه الفترة ، وربما إلى ما قبلها ، تطل أغلب هذه النوافذ على البحر ماعدا بعض الفتحات الضيقة التي تطل على الأنهج كنهج باب الواد .

يتألف هذا القصر من :

- الدور السفلي .

- الدور الأرضي (قسم المعيشة)

- الدور العلوي (قسم النوم)

يحتوي هذا القصر على سقيفتين ، السقيفة الأولى هي عبارة عن قاعة مربعة الشكل خاصة بحراس القصر ، أما السقيفة الكبرى التي تتخذ كمجلس لانتظار الضيوف قبل الانتقال إلى صحن البيت فهي عبارة عن سقيفة مستطيلة الشكل تقدر مساحتها بـ 50م² ، مبلطة بالرخام الأبيض ، نجدها دكات أو مقاعد من حجر الشيست ، تفصل بينهما الأعمدة المزودة المنحوتة ، سقف هذه السقيفة مقبب بالأقباء المتقاطعة الأضلاع ، وجدرانها مزودة بالمربعات الزخرفية ، ثم يقطع هذه السقيفة ملقف ⁽³⁾ للتهوية والإضاءة ، يتصدر مقعد رئيسي لصاحب البيت يسمى بالمصرية ⁽⁴⁾ .

وبجانب هذه السقيفة نصل إلى الطابق الأرضي للقصر بواسطة سلم رخامي ينفذ على وسط الدار - الصحن - ⁽⁵⁾

المربع الشكل بمساحة تقدر بـ 245 م² ، وسط الدار عبارة عن

¹ - الترميم إنما هو مرحلة من مراحل الحفظ ، وإليه ليس إلا جزءا منها يتكامل معها . والترميم يهدف إلى إعادة المعنى الجمالي الذي فقده الأثر بتأثير التلف الذي تعرض له ، وفي هذه المرحلة يمارس المرمم عمله مباشرة على الأثر على الرغم من مجازفته بتعديل مضمونه الجمالي والنيل من قيمته التاريخية . ولذا فمن المفيد أن نؤكد على القاعدة الأساسية لهذا النمط من الترميم ، وهي قاعدة احترام الطابع الأصلي للأثر طيلة مدة علاجه . يراجع :

- بيبونية (دني) ؛ الأخشاب المتعددة الألوان وترميمها ، ترجمة يسرى الكجك ، دمشق ، 1989 ، ص 17

² - Trémaux (P) ; Atlas : Parallèles des édifices anciens et modernes du Continent Africains , dessinés et relevés de 1847 à 1854, Paris, L.Hachette, 1854, pl :13

³ - الملفق ويسمى المنور ، والمقصود به الفراغات المحيطة بالمبنى أو بجزء منه لتكون مصدرا للضوء والهواء ، كانت الملفق شائعة عند المصريين القدماء ، وكانوا يثبتونها بأسطح المنازل لتواجه الرياح الشمالية التي تتسرب منها إلى داخل المنزل ، وقد استعمل هذا (الجهاز) في العصر الإسلامي في بلاد السند والعراق . يراجع :

- جندي (رامز راميا) ؛ دراسة فنية أثرية الأسقف الخشبية في العصر المملوكي بمدينة القاهرة ، تحت إشراف نويصر (حسني محمد حسن) ، لنيل

درجة الماجستير في الآثار الإسلامية ، 2003 ، المجلد الأول ، ص : 124

⁴ - Cotereau (G) ; La maison mauresque, pub les chantiers nord - Africains, Alger.Fontana Frères, 1930, p : 552

⁵ - يعتبر الصحن أو فناء البيت من أهم مميزات عمارة البيوت العربية والإسلامية ، لما ندخل صحن البيت من باب خارجي نجد أنفسنا في عالم آخر ، عالم غني وحيوي فيه الخضرة والماء والجمال ، ننبرهن ونتعجب للتناقض بين العالم الخارجي للبيت العربي وبين عالمه الداخلي وبيئته التي صنعها المعمار العربي بصفة عامة ، والجزائري بصفة خاصة ، كذلك يعتبر هو القسم الأساسي في البيت ، وكانت لفكرة تجميع عناصر البيت حول فناء داخلي لتحقيق أيضا مبدأ الخصوصية للسكان في ممارسة حياتهم العائلية أثارها الإيجابية من الناحية . يراجع :

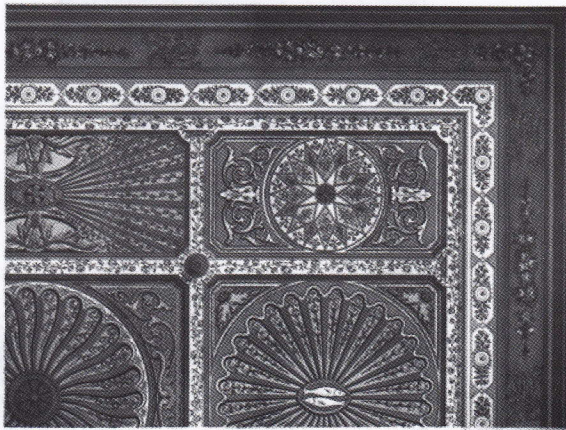
مساحة مربعة مرصوفة بالرخام الأبيض ، تقوم بوسطها أربعة أوراق ممتدة على اثني عشر عمودا رخاميا ، تتوزع على جوانب هذه الأوراق أربع غرف متفاوتة في الحجم طولا وعرضا، كما يوجد في أحد أركان الطابق الأرضي المطبخ ، ويوجد عنصر آخر وهو البئر الذي يستغل في الشرب أو في الاستعمالات الأخرى. وبناتقلنا إلى الطابق العلوي من هنا القصر فإننا نجد مستويين :

المستوى العلوي 1:

- الذي يمثل الدويرة أو ملحق القصر، يوجد به رواق صغير به قاعة للأكل ذات السقف المتعدد الألوان، وأرضيتها مفروشة بالفسيفساء تعود إلى الفترة الفرنسية، ورفوف جدارية خشبية تتناسب كليا مع زخرفة السقف، وتبلغ مساحتها بـ 4.80 م في 2.75 م .

المستوى العلوي 2:

- تبلغ مساحة هذا المستوى حوالي 280 م² ، يحتوي على خمس غرف كبيرة نوعا ما ، بالمقارنة مع الطابق الأرضي، أجمل ما في هذا المستوى « قاعة الأكل» والتي تبلغ مساحتها (6.05 م في 6.30 م)، وقد وصفهما « ليسور وويلد»⁽¹⁾ : بأنها من أروع نماذج الفن المعماري الجزائري لما تحتويه من زخارف متنوعة سواء في سقفها المنقوش بطريقة رائعة والملونة بألوان زاهية، تجعل عين الناظر تسبح فيه، ومما يزيد هذه القاعة متانة وجمالا جدرانها المكسية بأفخر البلاطات الخزفية⁽²⁾. (لوحة رقم 01 و 02).



لوحة رقم 02 : سقف قاعة الأكل الطابق العلوي ع/تريمو

بعدها نجد سطح القصر الذي هو عبارة عن فضاء فسيح ، يطل على البحر، وعلى جهات أخرى ، وهو عبارة عن مساحة مستديرة خالية الوسط. بسبب الصحن، الذي يحتوي على غرفة مسقفة بمساحة تقدر بـ 16م²، وبجانبها المنزه، ويغلب على الظن أنه كان يستعمل للترويح عن النفس، والتبريد خلال الصيف وكذلك لتجفيف الغلال.

- بلاهوريان (نوران كارا) ؛ جولة تاريخية في عمارة البيت العربي والبيت التركي ، الطبعة الأولى ، سورية ، 1998 ، ص 242

¹ - Lessore et Wyld (W) ; *Voyage pittoresque dans la régence d'Alger*, exécuté en 1833, Paris, Charles motte, 1835, p :8

² - سقف هذه القاعة، هو عبارة عن لوحة كبيرة، تتكون من تسعة أجزاء مختلفة الحجم والشكل، غنية بالمواضيع الزخرفية وتتشابه في بعض الأحيان في مواضيعها، وللإشارة فإن صورة هذا السقف نشر في عدة مجلات فرنسية بمجرد احتلال فرنسا للجزائر، وتبلغ أبعادها 6.05 م في 4.5 م. Lessore et Wyld (W), Ibid.

وعالبا ما تكون أسطح القصور أو البيوت مسورة كي تكون مكان سهر وسمر في أمسيات الصيف الحار، أو للنوم أحيانا .

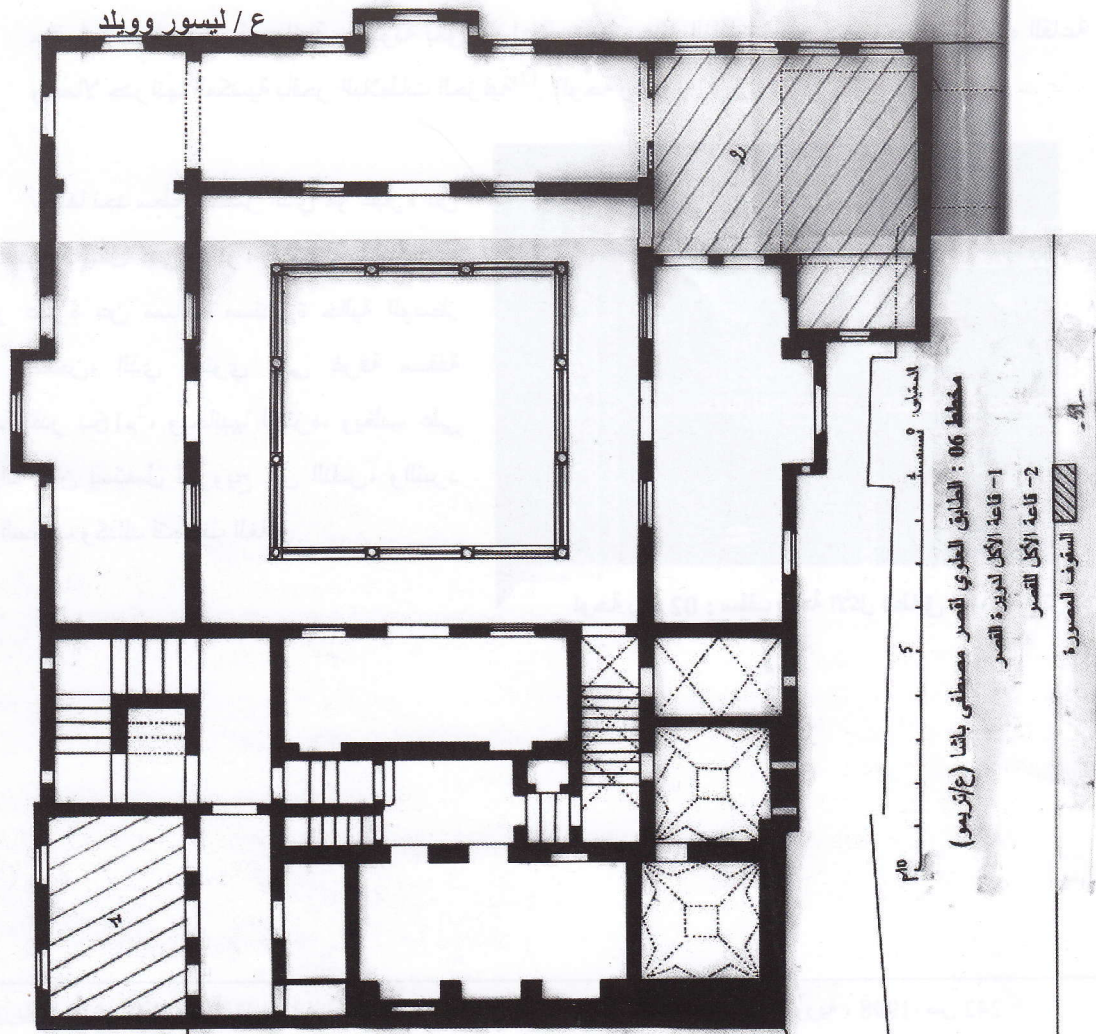
يعتبر هذا القصر من المعالم التاريخية التي ما زالت تحتفظ إلى الآن بجمالها الفني الأخاذ، المسجد في نقوشها الجميلة البديعة وبلاطاتها الخزفية المتنوعة وسقوفها المصورة بالألوان الزاهية.

وهذا كله نابع من النمط الموحد في كل مساكن الجزائر الذي يوحي بوجود ثقافة موحدة قائمة على الضبطية الإدارية الميسرة لهذا النمط.



لوحة رقم 1 : قاعة الأكل لقصر مصطفى باشا

ع / ليسور وويلد



مخطط : 06 : الطابق العلوي لقصر مصطفى باشا (ع/ترسيم)

1- قاعة الأكل لديرية القصر

2- قاعة الأكل للقصر

السقف المصورة

5 م